أنثى الحب

مرام عبد الرحمن عبدالله

روايـة

1. اسم الرواية: [أنثى الحب]

2. اسم الكاتب: [مرام عبد الرحمن عبدالله]

3. اسم الدار: [الدار السودانية للنشر الإلكتروني والنشر الذاتي00127074819]

4. عدد الصفحات: [30]

5. نوع الأدب: [نوفيلد.]

6.. تاريخ الإصدار: [تاريخ الإصدار2024]

7.ملكية الحقوق: [للكاتب فقط لا غير]

8.الأعداد: كبسور عبد الرحمن

الإهداء:

إلى الرجل الذي علمني الحب

وإن غاب نصفك
أحذر أن تكمل فراغك بالعابرين

مقدمة المؤلف

هذه الرواية نسجت من خيال الكاتب، الأحداث والشخصيات ليس لها وجود في الواقع.
اسمي ود، أبلغ من العمر ستة وعشرون عامًا، تجردت من أحلامي من أجل القبيلة، فأمضيت أعوامي أنسج جحيم حبي بين السطور.
قُطعت أواصر الدم بيننا، أعرضوا عني وكأنني خطيئة لا خلاص منها، فجراح العائلة ليس لها التئام.
قاسيت ببعدهم وحشة الطريق...
ظننت بهم عطاءً كثيرًا، لكنهم قابلوني بالقليل... والقليل.
أأبكيك خوفًا أم أبكيك طمعًا؟!
قلبي الجريح...
شاخت حروفي، وأن انتزع الجرح العتيق من بعده بتُّ أنزف من كل صوب على أمل أن أعود والتقيه.

"كلٌّ منا له حكاية بداخله."

في ختام يوم مديد وشاق كعادته، بعد عناء العمل وساعات الدوام، كنت عند المخرج أتهيأ للرحيل، دون تمهيد دلف إليَّ رجل يدعى زاد يقتاد امرأة مسنّة. تقدم نحوي بضع أميال، وخاطبني قائلًا: "السلام عليكم ورحمة الله."

أجبته: "وعليكم السلام."

فأردف: "والدتي تعاني ارتفاعًا في السكر منذ الآونة الأخيرة، وأضحت هذه المشكلة تتكرر بمعدل متزايد خلال الأسبوع. عانت حادثة شقيقي قبل عام، ومنذ ذلك الوقت لم تعد كما كانت من قبل، فهلّا كشفتِ غمها وكنتِ لها خير ناصح؟"

أجبته: "لا يعتريك القلق، هذه نوبات طبيعية تحدث نتيجة الضغط النفسي. ما يجب عليك فعله هو تقليل الكم الهائل من ثقل عاطفتها. تفضل إلى غرفة الفحص الدوري (فحص الصحة الشخصية). أنت تدرك ضرورة إجرائه بانتظام على فترات كل عام، بصرف النظر عن وجود حالة صحية، حيث يجب حماية الصحة وتشخيص مخاطر الأمراض في وقت مبكر من أجل بدء العلاج في الوقت المناسب."

دلفت إلى السيدة وهم زاد بالمغادرة. أجرينا الفحص وخرجنا نرتقب محصلة الفحص. جلست صوبي تتحدث بصوتٍ نحيب، تلك الغصات التي خالجت أحاديثها المشوبة بالبكاء، وكأن الحزن قد بلغ مداه. جال الدمع في عينيها وكأنها ما زالت على قيد الحياة.

ليت عجزي يهلك لأحمل ثم العشق عنها، وأغرس بقلبها اليسر.

بعد نحيب دام طويلًا، خفت بعده أن تصاب بمكروه لا سمح الله. فقلت لها "هوني عليك، إنها شدة وتزول، وربما أراد الله جمع شتاتكم في الجنة. احتسبيه خيرًا، إن الله لا ينسى عبدًا لجأ إليه."

فاحتضنتني وربتت على كتفي بحنان، فقلت لها: "سأتركك في أمان الله، ولا تنسي أنني هنا من أجلك على مر الزمان."

فشكرتني مرةً أخرى وهمت برحيل. دعوت الله كثيرًا أن لا يجزع قلبها وتعتاد الشداد.

مرت الأعوام وما زالت كلماتها تتخلل داخلي، أن العمر كرصيد الفرص إن مضى لن يعود، فقط يبقى صنيعك والأثر. فقط عليكم أن تخففوا جهد الأيام على من لا حيلة له.

بين خيال أنسجة وبين سطوة الحاضر يقبع كل شيء، وما بين تلك الأحاديث المهترئة، أفاقني جلبة شدت انتباهي. خلتها صوت هاتفي، اتجهت نحوه وحملته بطرفٍ هالكة لا تكف عن التفكير. وجدت رسالةً من شخص لم أعرف له هوية ولا تفسير. كتب لي...

من أين أبدأ؟
وهل يكفي عنك الحديث؟
كان الطريق إليكِ صعبًا،
فأنا بحبك أهوى كل ليلة صريعًا،
وكأن نجمةً تجلت في سمائي
وأوهجت كل الفضاء.
استوصيت بك خير النساء،
يا زمردة قلبي،
ويا شادية الألحان.**

كانت بمثابة ضماد لقلبي، لكنني لن أتسرع حيال الأمر، فكلٌّ منا له ذاته وأحلامه، ولن أبني أحلامي على مجرد نزوة حلت علينا. تركت الوقت يثبت لي صحة الأمر، لكن ما حدث غيّر كل شيء، فأنا لم أعد له العدة بعد.

في عشية صيف دافئة، كنت أستعد للرحيل إلى مخيم المتضررين من الحرب. أقرت رئاسة البلدة أن يذهب طاقم أطباء متخصص لعلاج كافة الحالات، فأعددت نفسي على هذا النهج وودعت عائلتي. لم أنل فرصة من قبل بهذا الشأن، فلذلك وجب علي الرحيل.

تربيت في كنف والدي بعد وفاة والدتي رحمها الله. لم آنس دار جدتي وأشعر بالألفة؛ فتشبثت بوالدي. قاسى كثيرًا من المعاناة والألم ليألف بين قلوبنا. لم يكل يومًا عن مراجعة واجبي المدرسي، ولم يتناسى أن يغيب عن عمله لبرهة عند احتداد سقمي. رغم المشقة، كان يحسن الظن بالله ويرجو عظيم الرجاء فيه.

عزم أن لا يترك ثغرة في فؤادي، وجعلني زاخرة وجدًا. كان يقول دائمًا: "لن أخيب ظنها، ولن أشق جناح حلمها بك." كانت تحلم برؤيتي أبلغ غايتي، لكن فاجعة موتها هشمت كل شيء. من بعدها غادرني الفرح ولبثني الحزن مليئًا. البيت أصبح هامدًا دون صخبها، كنا نستفيق على حديثها ذو الواقع الحسن، نتسابق لنأخذ نصيب الوقف بجانبها، فتقيم شقيقتي حربًا بهذا الشأن.

تربت على كلينا وتستقبل شكوانا بصدر رحب.
يا قبلتي
التي استجير بها عند الشدائد،
يا طهر قلبي
وقوتي عند المحافل.

كانت تخبرني دائمًا قبل رحيلها عن عرفان الإحسان: "ود إنكِ بنعمة ربكِ فأشكريه قولًا كما تشكريه عملًا." الآن أعاني غيابك وقساوة الحياة بدونك. إنني في قوة ماسة إلى احتضانك. لو تعلمين أنني اقتربت في غيابك من كل ما تحبين، أعد كل شيء وكأنني أرغب مجيئك على طاولة الطعام. أسترق النظر إلى المقعد الخالي، فتمطر عيناي حزنًا يكفي كم الأعوام الخالية منك.

اقترب لامزحك بأنني اليوم لم أعد أحرق الطعام، فأذكر بأنك غادرتِ ولم يبقَ سوى الذكرى. لو تعلمين كم أمضيت أعوامًا أنسج الأحلام بقربك، لكن حبل الوصل قد انقطع...
من أين أبدأ؟
وهل يكفي عنك الحديث؟
كان الطريق إليكِ صعبًا،
فأنا بحبك أهوى كل ليلة صريعًا،
وكأن نجمةً تجلت في سمائي
وأوهجت كل الفضاء.
استوصيت بك خير النساء،
يا زمردة قلبي،
ويا شادية الألحان.**

كانت بمثابة ضماد لقلبي، لكنني لن أتسرع حيال الأمر، فكلٌّ منا له ذاته وأحلامه، ولن أبني أحلامي على مجرد نزوة حلت علينا. تركت الوقت يثبت لي صحة الأمر، لكن ما حدث غيّر كل شيء، فأنا لم أعد له العدة بعد.

في عشية صيف دافئة، كنت أستعد للرحيل إلى مخيم المتضررين من الحرب. أقرت رئاسة البلدة أن يذهب طاقم أطباء متخصص لعلاج كافة الحالات، فأعددت نفسي على هذا النهج وودعت عائلتي. لم أنل فرصة من قبل بهذا الشأن، فلذلك وجب علي الرحيل.
تربيت في كنف والدي بعد وفاة والدتي رحمها الله. لم آنس دار جدتي وأشعر بالألفة؛ فتشبثت بوالدي. قاسى كثيرًا من المعاناة والألم ليألف بين قلوبنا. لم يكل يومًا عن مراجعة واجبي المدرسي، ولم يتناسى أن يغيب عن عمله لبرهة عند احتداد سقمي. رغم المشقة، كان يحسن الظن بالله ويرجو عظيم الرجاء فيه.

عزم أن لا يترك ثغرة في فؤادي، وجعلني زاخرة وجدًا. كان يقول دائمًا: "لن أخيب ظنها، ولن أشق جناح حلمها بك." كانت تحلم برؤيتي أبلغ غايتي، لكن فاجعة موتها هشمت كل شيء. من بعدها غادرني الفرح ولبثني الحزن مليئًا. البيت أصبح هامدًا دون صخبها، كنا نستفيق على حديثها ذو الواقع الحسن، نتسابق لنأخذ نصيب الوقف بجانبها، فتقيم شقيقتي حربًا بهذا الشأن.

تربت على كلينا وتستقبل شكوانا بصدر رحب.
يا قبلتي
التي استجير بها عند الشدائد،
يا طهر قلبي
وقوتي عند المحافل.

كانت تخبرني دائمًا قبل رحيلها عن عرفان الإحسان: "ود إنكِ بنعمة ربكِ فأشكريه قولًا كما تشكريه عملًا." الآن أعاني غيابك وقساوة الحياة بدونك. إنني في قوة ماسة إلى احتضانك. لو تعلمين أنني اقتربت في غيابك من كل ما تحبين، أعد كل شيء وكأنني أرغب مجيئك على طاولة الطعام. أسترق النظر إلى المقعد الخالي، فتمطر عيناي حزنًا يكفي كم الأعوام الخالية منك.

اقترب لامزحك بأنني اليوم لم أعد أحرق الطعام، فأذكر
بأنك غادرتِ ولم يبقَ سوى الذكرى. لو تعلمين كم أمضيت
أعوامًا أنسج الأحلام بقربك، لكن حبل الوصل قد انقطع...

أتذكرين؟
كل فرح يعتريك وتركضي إلي لتزرعي حقول السعادة
بداخلي.
أنتِ جنة
وتحت قدميكِ نشأت حياة.

أنتِ غيمة
قد أمطرت حزنًا كثيرًا.
أنتِ شمسٌ
أشرقت ظلمي فلن أحيد
ولن أميل.**

أنتِ طيفٌ
اكتسى منه ألوان الخريف.

"اللهم اجعلها من مَن عز عليه أمرك."
آمين.

غادرت وأنا أحمل بداخلي أشياء لم أجد لها متسعًا، فوكّلت أمري للذي لا يخفى عليه شيء. دلفت إلى المخيم، فاستقبلني رفيق العمل بصدر رحب، ومن بعد حديث دام دقائق، أسررت في نفسي أن أنال قسطي من الراحة، وأباشر عملي. كنت على يقين أن رُب ضارة نافعة، رغم أنني كنت في حالة يستحيل عليها أن تقدم شيئًا.

حينما دلفت إليهم، ربتُ على فؤادهم بدفء، واحتضنتهم حبًا يكفي كل شيء. كان عددهم مديدًا، فبدأت بالأكثر إصابة. عندما فرغت، انصرفتُ إلى حجرة صغيرة للنوم، واستوقفني طفل صغير كان يلمح أن أحدًا ما ينتظرني، دلّني على مكانه فذهبت.

كان زادًا يرتقب حضوري على أحر من الجمر، وكأنه يحمل إلي شيئًا. انتابتني المسرة بغتةً، لكونه شخصًا يعبث بالتفاصيل ويبذل قُصارى جهده نحوي، وكأنه يريد أن يجمع شتات قلبي به. ألقيت عليه التحية وجلست بجواره، شعرت بأن الزمن كتب لي عمرًا جديدًا.

• فقلت له: "ماذا جاء بك؟"
= أجاب بلهجة يسودها الحزن: "ودّ أنا على يقين بكل ما خالج عقلي."

• قلت له: "حديثك يعني أنني لم ألتقك صدفة؟"
= فقال: "كلا، الأعذار كاذبة. من أرادك يستطيع."
= وأردف: "كنت أعيب الحب، وكل من جُعل موضع الحب، لكنني ابتليت بك، وكل من عاب شيئًا ابتلي به."

نزل حديثه على قلبي كصاعقة، في محاولة لاستوعب بها هول الأمر، لكن عقلي ثمر عن التفكير وبرزت علامات الدهشة على ملامحي. متى وكيف؟ ولأي شيء يستقيم؟

استأذنته وطلبت منه الرحيل، لعلي أجد حلًّا لعلتي أو تفسيرًا. جاهدت كي يغمض لي جفن، وأكمل ما تبقى من ساعات الليل، لكن النوم جلا من عيني.

في اليوم التالي اتصلت بي شمس، وكنتُ بحالٍ يرثى لها.

• فقالت: "عزيزتي، كيف الحال؟"
= أجبتها: "أنا بخير، لكنني أفتقدك بين الوقت والآخر."

• فقالت: "لا تقلقي، عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام. فموعد الرحيل قد اقترب، سنلتقي قريبًا."
= أجبتها: "حسنًا، كوني بخير."

أغلقت الهاتف وذهبت في محاولة أخرى للنوم، ربما أكون بحالٍ أفضل. جعلت من الأمر حجة لأغيب عن عملي ساعات، لكنه لم يفلح. ما إن اتصل بي شخص من فريق العمل يطلب حضوري على عجل حتى بدلت ثيابي وخرجت لأستقل سيارة. بعد زحام طريقٍ طويل بلغت المخيم.

كان هنالك مريض يعاني الألم كثيرًا، بيده جرح عميق ينزف بغزارة، كجرح قلبي الذي ينزف من كل صوب ويصبح سقيمًا. ضمدت الجرح وقمت بكل ما يلزم. وجب علي المغادرة لكنني جلست بينهم أرتقب.

ماذا أرتقب؟! حبيبي الغائب أم قلبي الحائر؟!

• قاطعني قائلًا: "ماذا يعتريك؟"
= أجبته: "لا شيء."

• فقال: "هل كان صعب الخيار حيال رغباتك أم لا أستحق؟"
= فأردفت بنبرة حادة أكثر: "أتغريني بحلو الحديث؟!"

• قال: "السلام على قلبك، فأنا بعده لن أطلب شيئًا."
= أجبته: "وأي قلبٍ هذا الذي يزرف إليك الحب؟"

• قال: "أفصحت لك بكل ما يعيه قلبي. فوعد الحر دين عليه وإن كان على حساب نفسه."

• لماذا تقاسي قلبي وكأنني خائن لا يؤتمن؟

• أو أن اختلاف القبيلة يصنع فارقًا؟ لا تحسبي حلو الحديث كسارقٍ ينوي التسلل. أرجوكِ لا تهزمي قلبي الضعيف بحبك.

أخبريني أين أذهب كلما اشتقت إليك وقلبي لم يجد متسعًا غيرك؟ هذا حال كل شيء شاع بيننا. هو يعلم يقينًا أنني لن أعانق قبيلة أخرى مهما كلفني الأمر. لا حب يستوجب كل هذه العقوبات والهزائم. فأنا بالحب أصبح شخصًا لا أعرفه، شخص لا يوازن بين عاطفته وعقله. جُل تفكيره الحب.

أي حب هذا الذي أتجرد به من كل شيء؟! ألم تكفك أعذاري أم أنك تستدرجين قلبي للوقوع في درك المنتصف الذي لا نجاة منه؟ أي حب هذا الذي أسير على نهجه، واخترق مبادئي ويقف حائلًا بيني وبين عائلتي؟ لن تشعر بلذة الحب ما دمت عاجزًا عن هدم نظامٍ واحد أمام القبيلة. ستعود أدراجك خائبًا فقط خفف على نفسك تعب المسير.
أنا لن أمنعك من ممارسة الحب بداخلي، لكنني أعلم العاقبة وما سيحل علينا من وراء هذه التراهات، كمحاولة خلق شيءٍ بعيد المدى ومستحيل.

فقال لي: منذ أول لقاء بيننا عندما كنت في طريقي إلى مقطني، لمحت طيفك من بعيد، كنتِ تحملين باقة الورد بين يديك وتستنشقين راحتها العطرة بكل نشوة. كنتِ فاتنة حد الفرط، خصال شعرك الحريري وعطرك الذي كاد يخرجني عن طوري. كل شيء يغريني بالوقوع في شباك حبك، أحببت الأسود لأنه يليق بك.

عندما جلتُ بخيالي بعيدًا، وكنتِ قد شعرتِ بحضوري فأخرجتِ ثوبك المخملي الذي عانق أمواج البحر. ظننتُ أنك في حداد، لكنني لم ألبث أن لبستُ ثوب العناء بعدك، وأضحت أيامي ببعدك سوادًا يكسوه سواد.

أنتِ كل شيء أعاني منه الآن، أنتِ حرب لا سلام منها، ومجزرة لا ترحم أحدًا، أنتِ بمعزل عن كل شيء. كل شيء يعتريك يصبح خالدًا بداخلي للأبد. بجانبكِ أشعر أنني بعيد عن صخب الحياة.

بعد عناء المحاولات، كنتُ في داخلي عظيم الحب، فعزمتُ على مقابلته بعد عودتي من المخيم. كلفني الأمر إفلات الكثير والكثير...

"شمس".

منذ رحيل ود خيم علينا الحزن... وأي حزن هذا الذي اعترى دواخلنا ولم نجد منه مهرب؟! ظللتُ أعد الليالي ليومٍ تعود فيه، منذ آخر حديث بيننا وقلبي يمزقه الخوف. تلك الأشياء لم تحدث صدفة لمجرد بادئ الأمر.

"ود". يراودني حنين بالغ في العودة إلى كنفي الدفين. حزمتُ أمتعتي وغادرتُ بكل هدوء، ليت ذلك الهدوء يلازم قلبي لوهلة. أقلتني السيارة إلى بيتي.

طرقت الباب وبعد دقائق يعلو صخب شمس.
فقالت: "حمدًا لله على سلامتك".
أجبتها: "سلمكِ الله من كل سوء".
فأردفت: "تفضلي لنكمل الحديث في حجرتي، يكفي ما أصاب قلبك من عناء الرحلة".
قلت لها: "لم تكن الرحلة حملًا ثقيلاً، كانت المشقة بقلبي. التقيت زادًا ولا أدري أين المفر من ذلك الحب؟".
أجابت: "زاد جاهد كثيرًا من أجل ذلك الحب. لا تجعلي منه جرحًا لا يشفى للأبد. هو رجل لا تغريه أنصاف الأشياء، إما حاز قلبك أو العدم، لا ثلاث في الأمر. منذ أول حديث شاع بينكم وأنا على مضض بالأمر. الأيام بينكم خذي وقتك، وبعدها أخبريني ما يجب فعله حيال الأمر".
فقلت: "حسنًا، لكِ هذا".

بعد تفكيرٍ مديد طاح به عقلي اتخذت القرار أن أترك له حرية الاختيار دون فرص أخرى. لن أترك مجالًا للشك في قلبي ولن أترك سوء الضمير يلاحقني للأبد، فقط فرصة واحدة لا غير.

"اللهم إن كان خيرًا لي فأجعله من نصيبي، وإن كان شرًا فأجعل فيه الخير وأجعله من نصيبي".

"لا حب تخونه المسافات".

أخذت هاتفي وأرسلت له: "عزيز قلبي، سألتقيك عند العاشرة مساءً". هدأ خفقان قلبي حتى تلاشى مع الوقت. بدأت في إعداد نفسي كما أحب، ارتديت ثوبًا طويلًا يصل إلى الكاحل، وله فتحات من الجانبين مزين بالتطريز يحمل ألوانًا هادئة وجميلة. ارتديت بعض الأقراط المرصعة التي لطالما كانت عشقي الدائم.

دلفت إلى حجرة شمس، وكانت ترغب في مجيئي على عجلة، وكأن القلق أخذ نصيبًا منها.

• خاطبتني قائلة: "ستأخذ الأحداث مجرى آخر، فما العجلة عزيزتي؟"

• وأردفت: "لا تجعلي قلبك يلاحق ماضي الشعور، فالبدايات للجميع. زاد جعل منك سيدة النساء، فاصنعي من حبه فخرًا للأجيال، وإذا ضل سعيك ارفقي بقلبك، فهو يريد منك أمًا لصغاره حتى المشيب".

أجبتها حبًا: "وأنا أريده أن يقصي بشاعة الماضي ويرسم حاضرًا ينقض حيف القبيلة. فأنا بحبه أجول بقاع العالم المظلم لأجد بؤرة رحبة تحميني من شر طاغٍ. فأقبل إليه بكل وجدٍ وأشتكيه بعد الطريق، نشيد مغنىً يعانقُ نسق الحياة ووجدٍ يلاحم صغارنا أمد الدهر".

زاد وديع الطبع، حسن الخلق والمعشر سيغمر كل ثغرٍ بداخلي ويتولى رعايتي دومًا. ابتعدتُ بضع خطوات معلنة رحيليَ، أوصدت مدخل البناية، واحتجزت سيارة أقلتني إلى مطعم بابل.

فور وصولي، توهجت الشموع وكأنها خيوط ذهبية تنثر رقتها في الأرجاء. ثارت نسمة الحب بداخلي ورتلت نغمًا جعلني أتمايل على أسرابها، وما كان لي إلا أن أغني:

ويا أنثى الغزل.

أجبته حبًا: "بقربك التأمت أواصلي...". هذا اليوم خَلد في أحشائي ذكرى زاد للأبد. حدقت به مليئًا وكأننا لن نلتقي بعد. كم كنت خرقاء أحب ذاتي ولم أنصت إليه، تركته يتحتمي إلى حُطام نفسه، ويتوارى دون ظل. لم أتوقَّ شر نفسي، أصبته بلعنة الفقد، حتى خارت قوته وتبعثرت شظايا روحه. تركته يعاني كل شيء وقلبي الآن مبتور من عاقبة أمره، وخاطبته متوسلة بخطيئتي.

أعلم يقينًا أنه سينالني فرصة أخرى وأنني لن أضيع سعيه هدرًا.

• أردف: "كوني بخير حالٍ حتى نلتقي".

كطيف وريف يظلني، كان هو مرهفًا ودافئًا، ينتشل حزني وينبع داخلي غيمة فرح كأنها طلت منذ زمنٍ عتيق. منذ مهد لقائه وأنا أحمل له أضعاف الحب. أحببته بكل ما دارٍ في خلدي. وهل للحب نهاية؟ يا عزيز، إني خالجت بك نهج الحب وخرقت قواعد العشق وكتبتُ إليك...

إن كان الذي بيني وبينك مدن، لصدحت بها وعزفت لها مواويل. نحتشد بين الجموع، وكأنه ميلاد حبٍ نبت بين أحشائي وتغلغل في داخلي وانتشى، فهنيئًا لي بلذة عشقك يا عزيز. ستغدو إنسانًا يضاهي لوعة الحب، فأنت رجل لا يعرف المستحيل. أضحت اثنتك التي تجردت من كل شيء لتلتقيك، فأنا بك أصبحت أنثى الحب.

لم تكن بطيف مر صدفة، كنت هبة المولى، يا ناعس الطرف، يا حلو المغنى. يا من بك مر الحياة يطيب، أتساءل كل ليلة كيف لشخصٍ أن يحمل في قلبه كل هذا الحب؟ الحب الذي لفظت به عناءات زمن شاخ بي كثيرًا.

عندما التقيتك، التقيت بذاتي الهائمة في صخب الحياة، فنزعتها وجعلتها بين الحنايا، وحففتها بنعيم عشقك للأبد. ستظل وصمة في قلبي أغشى عليها من أنات السماء. أنت نهجي القويم رغم الأحاديث البائسة ورغم مجتمعي الذليل، ورغم آهات الليالي وعثرات السنين. أنت فجري بعد ليل طويل.

باسم الحب، حلقت بك شامخًا وكأنني حبيسة بين ذكرى الماضي. حلمت بك أحلامًا سرمدية لاحت في الآفاق البعيدة. وكأن عيناك اختلقت ليحبها قلبي يا عزيز.
أقبل اليوم المنتظر ومضى زاد، يسأل والدي بإلحاح بما يعتبره حقًا له، ويجعل من حبنا ميثاق عشقٍ غليظ، لكنه عاد بآمال خائبة.

قال: "والدك لم يشعر بحجم المشقة التي تعتريني بعد". جثى على الأرض وتنهد بكل حزن. لوهلة ظننت أننا على هاوية المفترق إلى أن غشاني حديثه كالصاعقة. فقال بكل سخط وهو يكتم غيظه: "لماذا يصنع حائلًا بيننا وكأنني دخيل؟".

غادر غرفة الجلوس بكل هدوء، فقبعت شمس بجانبي لتخفف الفزع الذي أصابني. ليتني انتزع قلبي ليقل ثقله. فقلت لها: "من قبل كنت أتغمس حزني وكأنني سأنتشله للأبد. كنت واهنة أن يكن لي غير الذي في قلبي، وأن ما شجر لوالدي قبل أعوام ينشب معي الآن. والدي حارب العرف والقبيلة، كيف لي أن أقبل عليه بآمال خائبة؟".

أردفت: "ماذا إذا غادرني هو أيضًا؟". قالت: "عزيزتي، كل منا له نصيب في الحب. الحياة تحتاج أسبابًا فقط. أعلم يقينًا أن الذي بينكما لا يحدث عبثًا، لعل القدر يحمل شيئًا...".

أجبتها: "يحمل لي شيئًا! الحياة لم تكن عادلة بحقي ولم تزرع في طريقي سوى الأحزان. انتزعت مني أوصارة الحياة، وكأنها وشت عليّ بالموت وأنا في مطلع الحياة. ينقضي عمري كسراب ملتحم بالخيبات، يتسرب نحوي ببطء ليريني سواء أيامي".

قالت لي: "أنتِ شخص لا يؤمن بالمنتصف، إما الأولوية أو العدم. أنتِ لن تقبلي بالنصف في الحب، فكيف لك أن تجعلي جهد أيامك ينقضي هدرًا من أجل حيف القبيلة؟".

فقلت: "أنا فقط أريد صادق الحب، ولا أريد أن أصنع المختلف".

ردت لي بوجوم: "لا تكوني كالنهر يقتلع الأسداد منطلقًا حرًا ويجري حبيسًا بين شطآن".

فقلت لها: "لكنني حاولت".

قالت: "عزيزتي، إذا سألتي فاسألي الله أن يجعل لكِ مخرجًا".

والدتي...
ليتك تعودي وتحرري قلبي من قيود سجنٍ عليل. فلحب هشم داري وقتل صغاري الذين حلمت إنسانًا بقربهم. أبعدوني عنه وأضحى الذي بيننا مثل السديم.

زاد لم يحتمل ضياع حبه وفقدانه كل شيء في آن واحد، فكان رد فعله مأساويًا لموقف الحياة التي أخذت منه ودًّا وجردته من حقوق الحياة، فانتقل إلى الرفيق الأعلى. فاجعة مماته هشمتني للأبد.

"مفترق طرق".
قول لي ماذا جنيت؟ أهلكتني، قيدت قلبي بالهوى وجعلت طيف البعد يطرق بابي. إنك غربتي، قدسيتي، ومغنامي. مزقت قلبي تارة وعدت إلى بغتة كنزوة المحتاج. أضحى قلبي ببعدك يشدو بلحن حزنه المعتاد.

هشمتني وسلبت قلبي وبترت بعدي سلم الأحلام. قولي يا عزيز الروح، أبعدي ارتقيت؟ أم ماذا جنيت؟ عانيت ويلات الليالي ووحشة الأعوام الخوالي. كنتُ لك قصبة سكر وسط مرارة الأيام.

قل لي ماذا جنيت لكي تمل وصالي؟ سأعمل على إصلاح قلبي أولًا... تعترينى أحاديثك كل ليلة، وكأنها نسمة من الماضي. أصبحت رؤياك سرابًا محطمًا يدعس عليه كل صغير. لطالما خشيت فراق المحبين يومًا، كأمنية لاحت في الأفق البعيد تحمل على عاتقها أحلامًا باتت محالة على واقع مجحف.

شاءت الأقدار أن نفترق ويجد كل منا منافذ أخرى، فالحال يا عزيزي بات واحدًا؛ لطالما لم تأذن لنا الحياة أن نجتمع مرة أخرى. الحياة بعدك كثقب أسود يبتلع ألوان الكون. تلك الحياة التي ناشدتني بما عاهدت نفسي أن أعيشه معك أمد الدهر، ليتها تتوقف عن العبث بي! وتنتهي كلما ازداد حجم المعاناة.

منذ رحيلك انتهت حلول السعادة، وتفشى الحزن في كل البقاع، بدوره يرسم حالًا واحدًا وكأنه يقتص طيب قلبه. كنت أظن أنني اجتمعت بك تحت سقف واحد، سقف حنون لم يطله الحزن، كتب على أعتابه الحياة وكأنني عانقت أحلامي بخيال نُحت على يدي، بقدرٍ قد كُتب...

منذ انخراطك بعالمي وأنا التمس النجاة وكأنني أعاني الغرق؛ فأنا الناجي بإذني والغريق في حكايتي. أحببتك طوعًا؛ فهجرتني كرهًا، وتركتني ألمس شتات خيبتي بعدك. لذعة الفقد نبذتني كالعراء قاحلة، فبأي حقٍ زرعت الحب في قلبي؟! ليتك تستل زحام قلبي وتبتر بعدي كل شيء. وهبتني نهاية لا أعلم مبتغاها، نثرت لك بين صفحات الكتب ما لا يعيه عقلك؛ فأنت رجل لا تستهويه الكتب. انتابتك سطوة الغضب فلفظتني على هامش السطور؛ بين كلمات نسجتها لك وكلمات حبيسة من طيات الماضي.

أقبلت أشتكي لك عقم المسافات التي قيدتني بك، فتقذفني إليك من جديد. الحب ليس خطيئة أو رغبة ليس لها مغزى. وأي ذنب هذا الذي اغترفته في حبي لأعاقب بالزواج من نجد؟ أي قبيلة هذه التي تلفظ صغارها دون دفء؟ لم أسلم من فاجعة زاد لأبتلى بزواج نجد، لم يتركوا لي سببًا للعيش بعده. القبيلة كانت طهري ولكن الآن تلاشى كل شيء، حتى والدي لم يعد يغريه شيء تركني لعاطفتي فأهلكت، ترك بعضي وكلي له، وكأنني ارتغبت ذلك الغائب البعيد.

مهما جردتني الحياة، حبي لزاد لن يغير شيئًا، فهو الغائب والحاضر والأحب إلى قلبي. فأنا الآن أبكيك بصوتٍ نحيب، أبكي على كم القصائد التي نسجتها لك، على تلك القصص التي اعترت داخلي بعدك. أبكي على قلبي المرهف ودارٍ لم تكن فيه منصف. أبكي على دمعٍ أُزرف وماضٍ مُعتم. ما زال فؤادي يبكيك، وهل للبكاء أن يغير شيئًا؟ وما بين العزاء الذي تقيمه نفسي قاطعني نداء والدي.

فقال: "عائلة نجد ستصل قريبًا، كوني مُتأهبة". كلماته جعلتني أغوص في بحر حزن عميق، تجرفني تياراته اللازعة من كل صوب، تمزق أحشائي على حطام حبه فأرتدم به من جديد، ويتركني لبقيتي فأشيخ همًا ووجعًا.

أذكر جيدًا ليالي الفراق التي ما زالت ترافقني وتمتلك حيزًا من ذاكرتي، ليتها تنجلي وتترك ما تبقى من فؤادي! ليتها تنهى الحرب التي بداخلي! أنا في مكانٍ يصعب عليّ الرحيل وإفلات ذِمام الأمر. قل لي ما حاجتي للحياة إن لم تكن فيها؟ كيف لي أن أخبر نجد بأن قلبي يعتنق رجلًا آخر؟ رجل أفنى حياته من أجلي، فكيف أوفيه عناء محاولته هدرًا؟

وصلت قبيلة نجد المكونة من والدته وشقيقه. أعد والدي كل ما يتعلق بتلك الليلة لتمر بسلام، ولا سيما أنه أحضر هدية صغيرة تعبر عن بهجته لانتسابه لتلك العائلة. برزت علامات الدهشة على ملامحي وازداد حجم المعاناة. انتابتني الشكوك بما يرميه والدي، وبدأ القلق يتسرب إلى داخلي عندما طلب نجد الحديث معي على بعد منهما، وهنا أيقنت حساسية الأمر.

• خاطبني بكل حماس: "أتخشين الحب؟".
= أجبته: "هنالك أشياء لم يكن من السهل التخلص منها".

• أردف: "أمستعدة لنبدأ طريقًا يحمل اسمنا؟".
= فقلت له: "ما بداخلي ليس له جدوى".

• أدار بنظره عني وخرج بكل حنق وأغلق باب الحجرة. تعجب الكل من أمره فجاء والدي يفتعل مشاعر الحزن من أمامه فقال: "لماذا لم تحسني الصنع؟ أم أنكِ لا تعلمين أن مصيرك ليس فيه نزاع؟".
= أجبته: "إنها مسألة وقت وسيطيب كل شيء".

• فقال: "أنتِ أمام القبيلة شيء لا يستحق الذكر، ستصبحين وصمة عار بينهم لا أكثر، ولن تحتملي العاقبة إما أن تتنازلي أو تفني بقية حياتك على مصير لا فكاك منه".

• أردف: "ود، هذا طريق قديم لا تعودي إليه. انظري إلى الجانب المشرق من الأمر، هناك شخص يرتغب مجيئك وسيعينك على كل شيء، سينير عتمة لياليك المظلمة ويهبك حبًا يمحى قهرًا عبث بقلبك. شخص يغريه جنوح مشاعرك ورحاب صدرك، فلا تجعليه يتجرع حنظل الخزلان بعدك".

قلت له: "هذا الزواج سجن من نوع آخر".
فقال: "أنتِ من تمنعين نفسك فرصة أخرى".
أجبته: "أنا فقط لن أخطئ على عجز طريق عقيم، وأودي بذاتي إلى هلاكٍ وجحيم. ستشرع الحياة باب الخير على مصراعيها، وظني بالله لن يخيب".
سأظل ثابتة على عهدي حتى نلتقي.
فربما سأكون سعيدة...
أو نلتقي على حافة طريقٍ ما.
حينها ستحبني حقًا.

"حياتي خيم عليها الحزن الأبدي".
مرت ثلاثة أعوام وكل ليلة يحتد سقمي، انقطعت عن الطعام والشراب حتى طغى جسدي الهزيل، وقساني النوم. عجز الأطباء عن إفشاء علتي، وأضحت تزداد بمعدل كبير دون حل مُجدي. شأني أقلق والدي والقبيلة فأقرأ سيخ القبيلة أن نمضي قدمًا إلى حيفا عساها عاقبة العناء.
عارضتُ الفرار مقابل الحرمان من سيط الذكريات، لكن الحديث بهذا الأمر أصبح لا يجدي نفعًا. والدي يعلم أن روحي لن تنعم بسلام إلا إذا نالت ما تتمناه، لكن الآن تعذرت الأمور وفات الأوان. زاد فارق الحياة وتركني بين الذكريات احتضر. جحظت عيناي عندما أدركت أن والدي حزم متاعه استعدادًا للسفر.
هبت نسائم الربيع الطلق تداعب الأغصان، تبلدت السماء بالغيوم وأنذرت بالمطر. هطلت بدفء وكأنها تروي ظمأ الأرض، تسللت خيوط ذهبية تحمل ألوان الطيف على حاشيتها، وحلقت أسراب الطيور لتذهب بعيدًا.

استقل والدي العربة لتقلنا إلى المطار، جال بخاطري مرأى الطبيعة الخلابة، وتتعالى أشجار السماق لترسم حيزًا يشرح الصدر عند رؤياه، وتمتلك عناقيد مخروطية وزهورًا خضراء.
فتنتابني المسرة بغتة.
بلغنا حيفا فعزم والدي المكوث بدار بعض الأقارب.
في صبيحة اليوم التالي، أفاقني صوت جلبة يتردد إلى مسمعي، فيهدأ رويدًا رويدًا حتى يلاشى تارة، ويعود تارةً أخرى. فهمتُ لأكشف ما وراء الجدران، فعثرت على فتاة في العشرة من عمرها تتشبث بقائمة الكرسي لتجلب غالب الكعك.
كنت أراقبها من مدى شاسع، ولكن عندما أدركت حضوري رمقتني بنظرات عينيها الثاقبتين.
فقلت مداعبة لها: "هل يمكنني المساعدة؟".
أجابت: "إذا لم يكن هنالك حرج".
وأردفت: "غدًا أول أيام العيد الذي ينتظره الجميع، يصحبني والدي بعد أداء الصلاة لتوزيع الطعام والصدقات على الفقراء والمساكين، فهي تترك شعورًا حميمًا في كل بقعة من بقاع الأرض. فنتقاسم الكعك والحلوى فيما بيننا ونجتمع في العشية على وليمة بدار جدي، فهي الملتقى لكل العائلة. فتهم الفتيات إلى طهي الطعام وإعداد الشراب، بينما ينشغل الآخرون بتبادل أطراف الحديث. نجتمع على المائدة ونشكر الله على فضله. بعد الفراق نذهب لنأخذ نصيبًا من الحلوى وبعض النقود من جدي، فهي عرف قديم لنشر السعادة وتوطيد أواصر القرابة بينه وبين أحفاده الصغار. وهكذا ينتهي اليوم بكل نشوة وسرور، وأعود إلى البيت منهكة وأغفو في سباتٍ عميق".
قلت لها والفرح يقطن داخلي: "سأعمل لأكون في الوقت المحدد. الآن يجب عليَ الراحة من تعب المسير. كوني بخيرٍ صغيرتي، سألتقيك عند المساء".

اتجهت صوب حجرتي لأنزوي وحدي بعيدًا عن صخب الحياة، كان ينقصني حضور زاد بقربي، فلا غائب ينسى ولو مر على غيابه ألف عام. لم أشعر بمقدار تلك الحاجة على مر الزمان، فحاجتي له فاقت الحدود.

ليته تخلف عن فعله الشنيع وأدرك أن حبه لازم قلبي!

ليته نالني فرصة أخرى لأصلح كل شيء!

لكنه أتقن فن البعد، وترك الذكريات المريرة تعتصر قلبي.

انقضت الليالي ليلة تلو الأخرى، وفؤادي يتمزق في كل مرة. لبرهة أيقنتُ حاجتي لمقابلة الطبيب. أبلغت والدي فملك زمام الأمر. فهمت برحيل لأخلد للنوم بعد قلق مديد. بلغت حجرتي فقبعت على الفراش، واحتميت تحت غطائي. شعرت برعشة ثقيلة طرأت جسدي، انتابتني بتشتت الانتباه وفقدان الوعي حتى تصلب جسدي وخارت قواي. قصدت السعي نحو الهاتف لكن أناملي تشابكت ببعضها البعض، وفقدت القدرة على الحراك حتى أولجت في نوبة مفاجئة أصابتني بشلل.

أسدل الليل ستاره فجارت عليَّ آيلة لتطالعني على أمر جلل، فعثرت على بقايا ثوبي المبعثر على الأرض، أحاطتني بزراعيها الصغيرين وصرخت في سيمائي بصوت نحيب.

فقالت: "ود ماذا أصابك؟".

آه يا صغيرتي لو تدري ماذا أصاب قلبي من فزعٍ على حثالة أيامي المقبلة.

احتشدت العائلة عند المدخل نتيجة نحيب الصغيرة. كنتُ غارقة في الدماء؛ أثر اصطدامي بأرض الحجرة. أقلوني إلى عيادة السيد نجيب، في طريقي نزف جرحي بغزارة، وفقدت الكثير من الدم. قنط والدي من أمر نجاتي فردد في باطنه: "اللهم يا رب اشفها وطهر جسدها من كل ألم وتعب. اللهم اجعل جسدها صابرًا على البلاء".

استقبلنا الطبيب بصدر رحب، وأقرَّ أنه سيقدم لي خير العون والمدد. بعد عناء دام أربع ساعات، دلف السيد نجيب ليخاطب والدي.

فقال له: "إن إصابة ود بالغة جدًا، وستأخذ وقتًا طويلًا لتنعم بالشفاء الكامل. يجب عليك رعايتها جيدًا ومنع دخول أي زائر عليها، فإصابتها تُلِف جزءًا من المخ، والذي يحدث بسبب انقطاع إمداد الدم عن المخ لفترة طويلة، مما يتسبب في فقدان الوظيفة التي يتحكم فيها هذا الجزء من المخ. وود في حال يرثى لها الآن، وستكون هناك أعراض أخرى تلازم حالتها الصحية. عزمت أن لا أخفي عنك شيئًا، لكن لا تقلق حيال الأمر، فود قوية وسيستجيب جسدها للأدوية. وسيطلق مجموعة الحركات غالبًا ما تحدث بدون شعور، والتي لها مدلولات هامة من الجانب التواصلي والنفسي. سنقوم بكافة الإجراءات والتحاليل اللازمة عندما تفيق من النوبة الدماغية".

كنتُ أقاوم فشلي الزريع...
لكنني الآن أقاوم خسارة كل شيء.
كنت أسير إليك رغم تيه الخطى،
وبعد الطريق،
رغم حيطتي وضعفي،
كنت أشد بك عضدي،
لكنك تركت قلبي صريعًا.
أي جحيم هذا الذي
رميتني في دركه يا عزيز؟!
أنا عاجزة أمام صفعات الحياة،
عاجزة أمام علتي وعزلتي.

ولكن ليس باليد حيلة.

يا حسرتي!
كيف لي أن أقضي حياة كاملة من بعدك؟
قل لي، أي مصير هذا الذي أقررتَه عني؟
وأي حياة هذه التي خُلَتْ عنك؟
ألم تقتصر على لذعة الحزن لأنال مهلكي؟
فاضت روحي وأنا أعاني كل شيء.
ليتنا على موعد لتخلد روحي بسلام.
مرت تلك الليلة لتتوالى عليَّ بخيبة أخرى، كنتُ أستعد لموعد زيارة السيد نجيب والاطمئنان على حالتي الصحية.
دلف إلى الغرفة حاملًا بيده المزيد من الدواء، رغم أنني حسبتُ أن جسدي ليس بحاجة لها. وضع أقراص الدواء واقترب لفحصي، علامات القلق كانت تتخلل ملامحه، لكنه حاول أن يظهر العكس لأبدو بنفس الشغف، وأنعم بأحسن حال.
وقف للحظات وكأنه يحمل شيئًا لم أكن مستعدة لسماعه.

• خاطبني بصوت متلعثم من الاضطراب: "ود، أنا آسف حيال الأمر".

• أطال بصمته لبرهة وأردف: "أعدك سأبذل قصارى جهدي حيال الأمر".

• أجبته بلهفة: "ما الأمر؟"

• قال: "يستوجب بقائك هنا لمدة شهر على الأقل، لا تنسي تناول الدواء في الموعد. وهم برحيل أعلم يقينًا أن هناك أمرًا آخر يقلق السيد نجيب، وأن الفحص أظهر شيئًا آخر، لكنني أودعت أمري لله وإنني غالبة بإذنه".

طلب السيد نجيب حضور والدي على عجل.
فقال والدي: "هل كل شيء على ما يرام؟".
أجاب نجيب: "تم تشخيص حالة ود نسبةً لإصابتها البالغة بالشلل النصفي. لدي بعض الملاحظات، عليك توخي الحذر في معاملتها لعدم تعرضها لغضب يعيدنا إلى نقطة الصفر، حينها لا ينفع شيء وسنفقدها للأبد. قد يؤثر الشلل النصفي على الجهة اليمنى أو اليسرى من الجسم، وفي كلا الحالتين يسبب ذلك ظهور أعراض تختلف في شدتها تبعًا لحالة المصاب كما يأتي:

• ضعف أو تصلب في العضلات.
• التشنج العضلي أو انقباض العضلات.
• اضطرابات في المشي.
• مشكلة في التوازن.
• عدم القدرة على إمساك الأشياء.
• ضعف في الذاكرة.
• صعوبة في التركيز.
• تغيرات في السلوك.
• نوبات متكررة.

سنبدأ العلاج خطوة بخطوة نظرًا لعدم قدرة جسدها على التحمل.
سينجح العلاج لأنه استجاب لأول دواء.
قال والدي: "حسنًا، كيف سيسير العلاج؟".
أجاب نجيب: "يعتمد علاجه على سبب حدوثه".
وأردف: "سنبدأ بجلسات العلاج الفيزيائي من الأسبوع القادم بإذن الله".
مرت الأيام القاسية لترسم طريقًا آخر، يعيد نبض الحياة بداخلي ويجعلني أكثر سعادة، ويعوض كل ما مضى، ويهديني حياة جديدة خالية من الألم وعافية تلازم خطواتي. كنت يائسة أمام حالتي أنني لن أشفى للأبد.
أجريت آخر التحاليل وكانت محصلة الفحص مبهرة.
"اللهم لك الحمد، حمدًا لا ينبغي إلا لك، لا إله إلا أنت، أنا المهموم الذي فرجت عليه وشافيته، فلَك الحمد".

ختامًا

"بعض الخيبات لا تضر"